عن تركهم الهتهم وما كان يعبد اباوهم من قبل فنفى اطباقهم على الاعراض عنه دليل
على انهم لم يجدوا اليه سبيلا اذ لو كان لنقل ولما سكتوا عنه كما لم يسكتوا
عن تحويل القبلة حيث قالوا ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها كما حكاه الله
عنهم قلت وفيه نظر اذ لا يدل الا على عدم الوقوع لا على امتناعه ثم
مما يحسم مادة الاحتمال قوله تعالى واذ اخذنا من النبيين ميثاقهم
ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم واخذنا منهم ميثاقا
غليظا ليسال الصادقين عن صدقهم واعد للكافرين عذابا اليما وقوله
واذ اخذ الله ميثاق النبيين الى قوله لتومنن به ولتنصرنه اذ من
البعيد ان ياخذ الله منه الميثاق قبل خلقه ثم ياخذ ميثاق النبيين
بالايمان به ونصره قبل مولده بدهور ويجوز عليه الشرك او غيره من
الذنوب هذا مما لا يجوزه الا ملحد كيف وقد شق صدره عليه الصلاة
والسلام صغيرا واستخرج منه حظ الشيطان وملئ حكمة وايمانا وقد
ذهب بعضهم الى انه نقل بجميعهم عليهم الصلاة والسلام مثل ذلك فان
قلت فما تصنع بقول ابراهيم في الكوكب والقمر والشمس هذا ربي قلت
معظم الحذاق من العلما والمفسرين على انه انما قال ذلك مبكتا لقومه
ومسفها لاعليهم فهو من مجاراة الخصم ليعثر وتقوم الحجة عليه او انه
على تقدير اداة الاستفهام الوارد مورد الانكار والمراد افهذا ربي
او انه قال ذلك بحسب زعم قومه اي هذا ربي على قولكم وزعمكم الباطل
كما قال تعالى اين شركائي اي عندكم واما من قال كان هذا منه في سن الطفولية
وابتدا النظر والاستدلال وقبل لزوم التكليف فقد صادم اطلاق
القول بالعصمة من الكفر قبل النبوة وعبارة بعض المتاخرين الانبيا
معصومون من الكفر قبل النبوة وبعدها في صغرهم وكبرهم انتهى فان
قلت فما معنى قوله لين لم يهدني ربي لاكونن من القوم الضالين
قلت معناه ان لم يويدني ربي بمعونته اكن مثلكم في ضلالكم وعبادتكم
قاله حذرا واشفاقا وتواضعا لله تعالى وتبريا من الحول والقوة
وان تاتي للمحقق وان قل بجهالة والا فهو معصوم في الازل عن الضلال
فان قلت فقد قال فرعون لموسى وفعلت فعلتك التي فعلت
وانت من الكافرين واجابه موسى بقوله فعلتها اذا وانا من الضالين
وذلك اعتراف بما رماه به فرعون من الكفر قلت ان حمل الكفر في كلام
فرعون على حقيقته فليس قول موسى وانا من الضالين اعترافا بما رماه به
ولا نصا بخلافه لان المراد بالضالين الجاهلون كما ذكر به والمعنى وانا من
الغافلين قبل اوان الجهل والسفه بحسب الصورة الظاهرة وهذا لا يستلزم
ان يكون معهم في نفس الامر حتى ينافي ما مر من كمال علوهم وسمو رفعتهم عليهم

الصلاة

الصلاة والسلام والمخطيون لانه لم ينهم قتل القبطي وانما قصد به دفعه
او الذاهبون عما يؤول اليه الوكز من القتل اذ لم يتقصده وانما قصد
به دفعه او الناسون كما في قوله تعالى ان تضل احداهما فتذكر احداهما
الاخرى وان حمل على كفر النعمة بقتل من هو من خواصه من تربيته اياه في بيته
وعلى فراشه وبين اولاده وعياله او على انه كان قبل فيمن يكفرهم الان
لانه كان معاشرا لهم ومخالطا لهم من غير انكار عليهم اذ جعلته جملة
وانت من الكافرين حالا من احدى التاءين او على الكفر بالوهية فرعون
او بنعمته لما عاد عليه بالمخالفة او على انه الان ممن يحكم عليهم في دين فرعون
بالكفر فلا اشكال اذ يتعين الاعتراف والنصب ولا يلزم محذور وعلى ذلك
التقدير ويأتي له تتمة فان قلت فما معنى قوله وقال
الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من ارضنا او لتعودن في ملتنا ثم قال بعد حكاية
عن الرسل قد افترينا على الله كذبا ان عدنا في ملتكم بعد اذ نجانا الله منها
اذ لفظ العود يقتضي انهم انما يعودون الى ما كانوا فيه قبل من ملتهم قلت
لفظ العود في كلام العرب لا يلزم ان يأتي لما ابتدا بل قد يستعمل في غيره بما
ليس له ابتدا بمعنى الصيرورة كما في حديث الجهنميين عادوا حمما ولم يكونوا
قبل كذلك وكذلك قول الشاعر

تلك المكارم لا قعبان من لبن • شيبا بما • فعادوا بعد ابوالا •

فان قلت فما محمل قوله تعالى ووجدك ضالا فهدى قلت
قال القاضي ابو الوليد لا اعلم احدا من المفسرين حمل الضالة في الاية على الضال
في الايمان فليس مشتقا من الضلال الذي هو الكفر وتاويله حينئذ من اوجه
قال الطبري وجدك ضالا عن النبوة فهداك لها وقال السدي وغيره واحد
وجدك ضالا عن شريعتك اي لا تعرفها فهداك اليها والضلال هنا معناه
التحير ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يخلو بغار حراء في طلب ما يتوجه به
الى ربه ويتشرع به حتى هداه الله الى الاسلام وقال علي بن عيسى وجدك
لا تعرف الحق فهداك اليه وهذا مثل قوله تعالى وعلمك ما لم تكن تعلم ابن عباس
لم تكن لك ضلالة معصية بل غيبوبة عن الظهور الى ان هداك الله اي بين
امرك بالبراهين الدالة على صدقك وقيل وجدك ضالا لا يعرف مكة والمدينة
فهداك للمدينة وقيل ضالا لا يعرفك احد فهدى ووجد بمعنى الفى واصاب اي وجدك
فهدى بك ضالا وقيل وجدك ضالا عن محبته تعالى لك في الازل بمعنى انك الى
ضلالك القديم والا الكفر ومنه قد شغفها حبا انا لنراها في ضلال مبين
اي محبة بينة قاله عطا وقال الجنيد ووجدك متحيرا في بيان ما انزل اليك
فهداك لبيانه وكما لم يذهب احد الى حمل الضال على الكافر في هذه الاية لم
يذهب الى حمله عليه في قصة موسى حيث قال قلت فما معنى قوله ما كنت